﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء: 11 - 13]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الإنـذار بعذاب الاستـئـصـال والـتَّـذكـير بعجائب الخلق

هذه الآيات مبالغة في زجر الكفار عن عصيانهم وكفرهم، فبعد أن أبان الله تعالى أنه أهلك المسرفين في تكذيبهم وكفرهم بالله، ونصر الأنبياء المرسلين عليهم، وبعد أن حكى تعالى عنهم الاعتراضات ظاهرة السقوط بظهور شرائط الإعجاز في القرآن وبدا ذلك ظاهرًا لكلّ عاقل، عند ذلك ظهر أن اشتغالهم بإيراد تلك الاعتراضات كان لأجل حُبِّ الدنيا وحُبِّ الرياسة فيها؛ فبالغ سبحانه في زجرهم عن ذلك فقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾[1]، وبعد أن أخبر أنّه صدق رُسلَه وعدَه، وذكر إهلاك المكذّبين له تبعًا لذلك، أعقب ذلك بذكر إهلاك أمم كثيرة من الظّالمين ووصف ما حلّ بهم ليكون ذلك مقصودًا بذاته ابتداءً اهتمامًا به ليقرع أسماعهم[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَصَمْنَا﴾: (قصم) أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على الكَسْرِ، وهو كسرٌ للشَّيْء الشَّديد حَتَّى يبين، ولا يرجى بعده التئام ولا انتفاع، لأنَّ القصَم: تحطيمٌ، وإذهابٌ، وإهلاكٌ، قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 123
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 23.

﴿قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ﴾؛ فالهلاك يُسمَّى قاصمة الظهر، ويُقال للظّالم: قَصم الله ظَهره[1]، والقصم في الآية الإهلاك القويُّ والاستئصال[2].

2) ﴿ظَالِمَةٗ﴾: (ظلم) أصْلانِ صَحيحانِ، أحدُهُما: وضْعُ الشَّيْءِ غَيْرَ مَوْضِعه تَعدّيًا؛ ومنه قولهم: "مَنْ أشْبَه أباهُ فما ظَلم"؛ أيْ: ما وضع الشَّبه غَيْرَ مَوْضِعِهِ[3]. "والظُّلْمُ عند أهل اللّغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختصّ به، إمّا بنقصان أو بزيادة، وإمّا بعدولٍ عن وقته أو مكانه"[4].

3) ﴿أَحَسُّواْ﴾: (حسّ) أصْلانِ: فالأولُ غَلبةُ الشَّيْءِ بقَتْلٍ أوْ غَيْرِهِ، ومنه الحَسُّ: القَتْلُ، قالَ اللّه تَعالى: ﴿إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦٓ﴾ [آل عمران: 152]، ومن هذا البابِ قَوْلُهُم: أحْسَسْتُ؛ أيْ: عَلِمتُ بالشَّيْءِ، وهو محمول على قولهم: (قتلتُ الشيءَ علمًا)، فقد عاد إلى الأصل المذكور[5]، ولا يُقال: حسست؛ بمعنى فهمتُ وعلمتُ، إلّا فيما كان من جهة الحاسَّة، وحقيقة اللَّفظ إدراك بالحاسَّة؛ فقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ﴾ تنبيهٌ على أنَّه قد ظهر منهم الكفر ظهورًا بان للحسِّ فضلًا عن الفهم[6]، ومعنى ﴿أَحَسُّواْ﴾ في الآية الكريمة: باشروه بالحواسِّ وعَلِموه وشاهدوه[7].

4) ﴿بَأۡسَنَآ﴾: (بأس) أصْلٌ واحِدٌ، وهي الشِّدَّةُ وما ضارَعها من ألفاظٍ كالحرب، والمشقّة، والضَّرر، والبائس: الرّجلُ المُبتلى النّازلُ به بليَّة، والمُعْدَم، والمُبْتَئِسُ المُفْتَعِلُ من الكَراهَةِ والحُزْن[8]، فـ"البُؤْسُ والبَأْسُ والبَأْساءُ: الشِّدَّة والمكروه، إلّا أنّ البؤس في الفقر والحرب أكثر"[9]، وذَكَرَ أهلُ التَّفْسير أن البَأْس في القُرْآن إمّا شدَّة العَذاب، وإمّا: الشِّدَّة

(1) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المُحكم، والراغب، المُفردات: (قصم)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 25.
(2) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 75، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 25.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(4) الراغب، المفردات: (ظلم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسّ).
(6) الرّاغب، المفردات: (حس)، والسَّمين، عمدة الحُفّاظ: (حسس).
(7) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 75، والفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 124، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 25.
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بأس).
(9) الراغب، المفردات: (بؤس).

في القِتال، وإمّا البأساء، وهي: الشِّدَّة النّازِلَة[1]، ومعناها في الآية: شدّة الألم والعذاب[2].

5) ﴿يَرْكُضُونَ﴾: الرَّكض: مِشية الرَّجل بالرِّجْلَيْن معًا، والرّاء والكاف والضّاد أصلٌ واحدٌ يدلُّ على حركة إلى قدم أو تحريك، يُقال: ركض الرَّجل دابَّته، وذلك ضربُه إيّاها برجليْه لتتقدَّم، ثم استعملوه في الدَّوابِّ لكثرته على ألسنتهم؛ فقالوا: هي تركض، كأن الرّكض منها[3]، فـ"الرَّكْضُ: الضَّرب بالرِّجْل، فمتى نسب إلى الرّاكب فهو إعداء مركوب، ومتى نُسب إلى الماشي فوطء الأرض"[4]، وأُطلق الرَّكض في هذه الآية على سرعة سير الناس؛ فهم يهربون[5].

6) ﴿أُتْرِفْتُمْ﴾: التَّرف: التَّنعيم غذاءً، وحالًا، والمُترَف: المُوسَّع عليه عيشُه، وصبيٌّ مُترفٌ إذا كان مُنعَّم البدن مُدلَّلًا، والمُترف الّذي أبطرته النّعمة وسعة العيش، المتروك يصنع ما يشاء لا يُمنع منه، وقيل للمُتنعِّم: مترفٌ؛ لأنّه مُطلق له لا يُمنع من تنعُّم سواء بالطَّعام الطَّيِّب أو بالشَّيء يخصُّ به، فالتّاء والرّاء والفاء كلمة واحدة، وهي التّرفة[6]، ومعنى الإترافِ في الآية: إبطار النِّعمة والتَّوسُّع فيها من العيش الرافِه والحال الناعمة[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في الآية تهديدٌ لأهل القرى المشركين بأن يسلكوا طريق مَنْ سبقهم من ظالمي القُرى السالفة فقصمهم اللّه تعالى وأهلكهم، وقطع دابرهم، ثم أقام مكانهم قَوْمًا آخَرينَ على غير منهجهم مُؤهَّلين لدعوة الحقّ[8].

إذا أراد اللهُ هلاكَ الظّالمين لم يُعجزه شيءٌ البتَّة

(1) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النواظر، ص: 184، والجوهريّ، الصّحاح: (بأس).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 25.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ركض).
(4) الراغب، المفردات: (ركض).
(5) السّمين، عُمدة الحُفّاظ: (ركض)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 25.
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ترف).
(7) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 106، والرّاغب، المُفردات: (ترف).
(8) الخطيب، التفسير القرآنيُّ للقرآن: 9/ 853.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ وصْلِ الجملةِ بما سبقها:

قـــدرةُ الـلـه الـقـاهـرةُ تـدكُّ حصونَ المشركين

عُطفت هذه الجملة على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾ [الأنبياء: 9]، وهي واردة على سبيل التَّعريض للتَّهديد؛ ففيها "تَعْريضٌ بإنْذارِ المُشْرِكينَ بالانْقِراضِ بقاعِدَةِ قياسِ المُساواةِ، وأنَّ اللهَ يُنشئ بَعْدَهُم أُمَّةً مُؤْمِنَةً"[1]؛ ففي الآية نوعُ تفصيل لإجمالِ قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾ [الأنبياء: 9]، وبيانٌ لكيفية إهلاكهم وسببِه وتنبيهٌ على كثرتهم[2].

معنى الواو في: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾:

عـاقبة الظالمين هـلاكٌ في الدنيا وعـذاب أليم في الآخرة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ إمّا عاطفة، وإمّا استئنافيَّة مسوقة للتَّمثيل بالأُمم التي هلكت قبلهم، ومجيؤها هنا لتشريك كسر شوكة الظالمين، وبيان سوء العاقبة التي تنتظرهم هلاكًا في الدُّنيا والويل والثُّبور الذي هو الجزاء الأوفى لهم في الآخرة، وأنَّ اللهَ تعالى مُستبدلُهم بقومٍ آخرين يكونون خيرًا منهم وأصدق إيمانًا ويقينًا.

مفهوم ﴿وَكَمْ﴾ وسِرُّ وُرُودِها ومحلُّها:

إهـــلاك الـلـه تعالى لكثير من الظالمين فلم يُبقِ لهم أثرًا ولا خبرًا

تأتي (كم) "خَبريةً لا تَحْتاجُ إلى جَوابٍ بمَعْنَى عَددٍ كَثيرٍ فيُجَرُّ ما بَعْدَها؛ نَحْوُ: كَم عَبْدٍ مَلَكْتُ"[3]، وقد كثُر استعمالها للإخبار عن كثرة الشيء، وهي في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ كذلك خبريَّة مفيدة التكثير؛ والمعنى: كم قرى كثيرة كانت ظالمة مكذِّبة رسولها إلّا وقد أهلكها اللهُ تعالى فلم يُبق لها أثرًا ولا خبرًا.

دلالة التعبير بالقصم دون سواه:

لمّا كانت الآية ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ "واردة عن غضب شديد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 23.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 17/ 15.
(3) الزركشي، البرهان: 4/ 329، 328.

ومنادية على سخط عظيم؛ لأنَّ القَصْم أفظع الكسر؛ وهو الكسر الذي يُبيِّن تلاؤم الأجزاء، بخلاف الفصم"[1]؛ فالقَصْم: الكسر مع الإبانة، والفَصْم: كسر من غير إبانة؛ فهو تصدُّع من غير كسر[2]؛ وعليه فإنَّ التعبير بلفظ ﴿قَصَمْنَا﴾ للدلالة على أنَّ الله تعالى أهلك هذه القرى حتى لا يستبين لها أثرٌ أو يُعرف لها مَعْلَمٌ يُشار إليه منها، كما أنَّ كسر الزجاجة لا يلتئم ولا يعود إلى سجيَّته الأولى.

الأمم الظالمة لا تقوم لها قائمة بعد إهلاك الله تعالى لها

بلاغة الاستعارة في لفظ القصم:

قال الشَّريف الرَّضيُّ: "وحقيقة القصم كسرُ الشيء الصَّلب وجعِلَ ههنا مستعارًا للعبارة عن إهلاك الجبّارين من أهل القرى أصْلَب ما كانوا عبدانًا وأمنع ما كانوا أركانًا"[3]، فالتّعبير على هذا في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ استعارة تبعيَّة في الفعل ﴿قَصَمْنَا﴾ استعير هنا للإهلاك الَّذي لم يُبق أثرًا، ثمَّ اشتُقَّ من القصم الفعل ﴿قَصَمْنَا﴾ بمعنى: أهلكنا إهلاكًا شديدًا، والقرينة عقليَّة لاستحالة أن يُكسَروا حقيقةً؛ ولكن أُريد المبالغة في الإهلاك.

المبالغة في الإهلاك يُناسب عِظَم الجُرْم

معنى ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ هنا في قوله ﷻ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ لبيان الجنس بدلالة موقعها مع القرية التي أُريد بها التَّمييز؛ فهي مبيِّنة لنوع هذه القرى الظّالمة وجنسها، وبيان الجنس معنى مكين في ﴿مِن﴾ لا تكاد تنفكُّ عنه[4].

لا بُدَّ من تمييز أهل الظُّلم من غيرهم

سِرُّ التَّعبير بالفعل الماضي (كان):

التَّعبير بالفعل الماضي دالٌّ في أصل وضعه على تحقُّق الفعل وحصوله، ومجيء الفعل هنا أبان عن الظُّلم الَّذي وقع من هذه

فاعلية الظُّلم المباشرة في جلب العذاب على أهله

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 564.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 157.
(3) الشَّريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص: 180.
(4) الزركشي، البرهان: 4/ 417.

القرية وحصوله ممّا كان سببًا مباشرًا في وقوع إهلاكها، وفي كان بيانٌ لترسُّخ الظُّلم في هذه القرية حتى لكأنَّها خلقة في أهلها حتى أضحت كينونتهم الظلم.

سرُّ الوصف بـ﴿ظَالِمَةَ﴾ دلالةً، وصيغةً:

عِـظـمُ الـذنـب وأذاه للنفس والـغير يناسب وصف الظلم

الظُّلم ضررٌ لا يُستحقُّ ولا يُعقب عِوضًا سواء كان من سلطان أو حاكم أو غيرهما، وخيانة المال تُسمَّى ظُلمًا، وأصل الظُّلم نقصان الحقِّ ومجاوزته بوضع الشيء في غير موضعه المختصّ به، إمّا بنقصان أو بزيادة، وإمّا بعدول عن وقته أو مكانه، ويُقال فيما يكثر وفيما يَقِلُّ من التَّجاوز، ولهذا يُستعمل في الذَّنب الكبير، وفي الذَّنب الصّغير[1].

الاعـتـبـارُ بحال أهـــل الـظُّـلـم ومـــا لـهـم من العقوبة عاجلًا وآجلًا

وفي وصْفِ تِلْكَ الأُمَم بالظُّلْم إيماء إلى سَبَبِ الإهْلاكِ، فحصل مِنْهُ ومِن (كم) الدّالّة على الكَثْرَةِ مَعْنَى العُمومِ، فيعْلَمُ المُشْرِكونَ التَّهْديدَ بأنَّ ذلك حالٌّ بهم لا مَحالَة بحُكْمِ العُمومِ، وأنَّ هذا لَيْسَ مُرادًا به قَرْيَةٌ مُعَيَّنة[2]، ومجيئها على صيغة اسم الفاعل للدلالة على ثبوت هذا الظلم واستمراره؛ فهذه القرية لمّا حصل منها ارتكاب الكبائر والصغائر وظلم البشر أهلكها الله تعالى.

نوع المجاز في لفظ ﴿قَرْيَةٍ﴾:

يكتسب المكان شهرته من حال مَـنْ يعيشون فيه

التعبير بالقرية هنا على سبيل المجاز المرسل لعلاقة المحليَّة، فأُطلق المحلُ وهو القرية وأُريد الحالُّ فيها وهم أهلها، أو هي من باب المجاز العقلي لعلاقة المكانيَّة؛ إذ القرية مكان أهلها، وقوله: ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ تمييز لـ﴿وَكَمْ﴾ مجرور بـ﴿مِن﴾، وقوله: ﴿ظَالِمَةَ﴾ صفة لقرية، كما أنَّ الوصف بالظلم هنا من باب التوسُّع المجازي - كما ذكرنا - بدلالة العقل على عدم ظلم المكان أو المحل، ومجيء القرية مُنكَّرة للتَّحقير من شأنها بنسبة الظُّلم إليها.

(1) الراغب، المُفردات: (ظلم).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 24.

موقع جملة ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ من الإعراب:

وإن تتولَّوا يستبدل قومًا غيركم أهل صلاح وتُقى

جاءت جملة ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ معترضةً بين جملة ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾؛ والمعنى: كثيرًا ما أهلكنا من أهل القرى الذين كانوا ظالمين أنفسهم ومَن تبعهم بالكفر بالله تعالى وتكذيبهم الرسل ﷺ وأوجدنا وأحدثنا قومًا آخرين مكانهم بعد هلاكهم آمنوا وصدَّقوا.

سرُّ اختيار فعل الإنشاء دون مرادفاته:

لا يُنشأ جيلٌ مؤمن جديد إلا بمحو آثار الظالمين السابقين

الإنشاء هو الإحداث حالًا بعد حالٍ من غير احتذاء على مثال، والإنشاء أيضًا: ابتداء الإيجاد من غير سببٍ، والفعل يكون عن سببٍ، أمّا الإحداث فهو إيجاد الشيء بعد أن لم يكن، ويكون بسببٍ وبغير سببٍ[1]، وقيد الإحداث من غير احتذاء على مثال حالًا بعد حالٍ الذي يختص به فعل الإنشاء هو علَّة إيثاره ههنا لتحقيق معنى محو آثار الظَلَمة كلّيًّا، وإيجاد جيل جديد على غير سَنَنِهم.

بلاغة الكناية في جملة الإنشاء:

إنشاء جيل جديد على منهج قويم مرتكز دعوة حقٍّ وخير جديدتين

وبناءً على ما ذُكر في الفائدة السابقة؛ فإنَّ التَّعبير في قوله تعالى: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ كناية عن فناء هؤلاء المُكذِّبين عن بَكْرَة أبيهم واستئصال شأفتهم حتى لا تبقى منهم بقيَّةٌ على الإطلاق، ثم يُوجد قومٌ آخرون على غير سَنَنِهم ومنهجهم حتى كأنَّهم صاروا خَلْقًا جديدًا مع منهجٍ قويم وتربية حسنة تُؤهِّلهم أن يكونوا دُعاة حقٍّ وخيرٍ وإيمان، وأُسند فعل الإنشاء إلى ضمير العَظَمَة تشريفًا ورِفعةً لكون المُنشئ هو الله تعالى.

المُراد بالبَغْدِيَّة هنا، وعود الضمير فيها:

اجتثاثُ دابرِ الظالمين وإنشاء قوم آخرين

(بعد) في قوله تعالى: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ ظرفٌ مُبهمٌ يُفهمُ معناه بالإضافة لما بعده، ويكون منصوبًا أو مجرورًا

(1) العسكري، الفروق اللُّغوية ص: 139، 140.

بـ﴿مِن﴾، وقد يُقطع عن الإضافة وهي مفهومة من الكلام فيكون مبنيًّا على الضَّمِّ، والمُراد بالبَعْديَّة هنا؛ أي: بعد هلاك أهلها لا بعد تلك الفِعْلة؛ فالضمير فيها عائدٌ على القرية[1].

تنكير لفظ ﴿قَوْمًا﴾:

شتّان بين أهل الظُّلم والهَدْم وبين أهل الصلاح والبناء

ورد التعبير بلفظ ﴿قَوْمًا﴾ هنا نكرة إيماءً إلى أنَّ هؤلاء القوم الآخرين لم يكونوا كسابقيهم، فهم أهل إيمان وصدق يُنشئون القرى ويعمرونها لكونهم أهل صلاح وبناء لا قوم سوء وخراب، فأُريد بالتنكير هنا التعظيم والتشريف وفضل النَّوع.

سرُّ الوصف بقوله: ﴿ءَاخَرِينَ﴾:

عذاب شديد اجتثَّ دابِرَ القرى الظالمة

جاء التعبير بـ﴿ءَاخَرِينَ﴾ تعريضًا وتنبيهًا على أنَّ بناء القرى وعمارتها وصلاحها يكون على يد هؤلاء القوم؛ فهم ليسوا من سابقيهم بشيء البتَّة لاستئصال الأوَّلين وقطع دابرهم بالكليَّة، وهو السِّرُّ في تقديم حكاية إنشاء هؤلاء على حكاية مبادي إهلاك أولئك بقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ﴾[2]، ولما يرد الوصف بأي صفة أخرى كالإيمان والإسلام وغيرهما لاشتمال الوصف بـ﴿ءَاخَرِينَ﴾ وعمومه لجميع الصفات الحميدة التي يتَّصف بها هؤلاء القوم فلم يُحدّهم بوصف معيَّن؛ بل جعلهم يتحلَّون بكلِّ خصال الخير والنَّفع.

معنى الفاء في ﴿فَلَمَّآ﴾:

الظالمون يُحسُّون بالعذاب النّازل بهم المُدمِّر لهم

الفاء هنا عاطفة لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ﴾ على قوله: ﴿وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾ من تفريع وترتيب ما ألَمَّ بهذه القرية الظّالمة، فأحسَّ هؤلاء الظالمون بالعذاب النازل بهم المدمّر لهم وأيقنوا نزوله وحلوله بساحتهم، والفاء العاطفة دالَّة على التعقيب، وهو في كلِّ شيء بحسبه، ولهذا قيل: "إنَّ البَأْس في الوُجودِ قَبْلَ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 17/ 16.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 17/ 16.

الهَلاك، وأنَّ مجيء البَأْسِ مَجْهولٌ لِلنّاسِ، والهَلاكَ معلومٌ لَهُم وذكرهُ عَقِبَ الهَلاكِ وإنْ كانَ سابِقًا لِأنَّهُ لا يَتَّضِحُ إلّا بالهَلاكِ، "وأنَّ الهَلاكَ ومجيءَ البَأْسِ لَمّا تَقارَبا في المَعْنَى جازَ تَقْديمُ أحدِهِما على الآخر، وهي هنا واردة للترتيب الذِّكري"[1].

مفهوم ﴿فَلَمَّآ﴾ هنا:

﴿فَلَمَّآ﴾ هنا ظرفيَّة حينيَّة أو رابطة للجواب، وهي تدخل على الماضي؛ وعليه فهي حرف وجود لوجود، أو وجوب لوجوب؛ فيقع الأمران جميعًا معها، وهي ظرف بمعنى (حين)، وجوابها يرد ظاهرًا ويكون جملة اسمية مقرونة: إمّا بالفاء، وإمّا بـ(ما) النّافية، وإمّا بـ(إذا) الفجائيَّة كما في الآية هنا.

الظالمون لا يفيقون إلّا على وقوع البأس

إيثار التّعبير بالفعل ﴿أَحَسُّواْ﴾:

الإحساس هو الإدراك بالحسِّ، فيكون برؤية ما يزعجهم، أو سماع أصوات مُؤذِنة بالهلاك كالصواعق والرّياح[2]، فلمّا رأوا العذاب المُدمِّر؛ علموا عاقبة أمرهم ومآل حالهم، ولهذا يُقال: كلُّ ما شعرتَ به فقد أحسستَه؛ أيْ: أدركتَه بحسِّك؛ ومنه الآية هنا، والتعبير بالفعل الماضي لتحقُّق هذا الإحساس ووقوعه منهم لمّا رأوا العذاب الَّذي ألَمَّ بهم وأحاطهم جميعًا.

أفاقوا على العذاب المُدمِّر؛ فعلموا عاقبةَ أمرهم ومآلَ حالِهم لكن دون جدوى

مرجع الضمير في الفعل ﴿أَحَسُّواْ﴾:

ورد ضمير ﴿أَحَسُّواْ﴾ جمعًا؛ لكونه راجعًا للأهل؛ أيْ: أهل هذه القرية الظالمة لا للقوم الآخرين الذين جاؤوا بعدهم؛ لأنَّ هؤلاء لا ذنبَ لهم يقتضي ما تضمَّنه هذا الحُكْم المذكور كما ألمح إلى ذلك الآلوسيّ[3].

كلٌّ مأخوذٌ بجريرته ولا يظلم ربك أحدًا

توجيه الاستعارة في قوله: ﴿بَأْسُنَآ﴾:

قال الآلوسي: "وجُوِّز أن يكون في (البأس) استعارة مَكنيَّة،

(1) الزركشي، البرهان: 4/ 295 - 294.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 25.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 17/ 16.

ويكون (الإحساس) تخييلًا، وأن يكون (الإحساس) مجازًا عن مُطلَقِ الإدراك؛ أي: فلمّا أدركوا ذلك"[1]، ومُرادُه بالاستعارة المَكنيَّة، حيثُ شُبِّهتْ شدَّة الألم بسبب العذاب بالبأس الذي يُصاب به الإنسان نكايةً بما اقترفه من الظُّلم، ثمَّ حذف المُشبَّه به ودُلَّ عليه بلازِمِه وهو الإحساس بهذا الألم وإثباته لها تخييل، وهو قرينة المَكنية مبالغة فيما ألمَّ بأهل القرية من العذاب.

من صور عذاب الله تعالى للظالمين أن جعلهم يُحسُّون بقُرب هلاكهم

سرُّ إضافة البأس إلى الله تعالى:

إضافة لفظ ﴿بَأْسُنَآ﴾ إلى الله تعالى في قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسُنَآ﴾ لقوَّة الأخذ مع بيان قدرته سبحانه في النِّكاية بهم؛ إذ لا يقدر على إيقاع العذاب وإيلامهم به إلّا الله تعالى؛ فهو آخذ عزيزٌ مقتدرٌ.

أخْذُ الله تعالى أليمٌ شديدٌ

معنى ﴿إِذَا﴾ في: ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾:

﴿إِذَا﴾ في قوله ﷻ: ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ فجائيةٌ، وتجيء اسمًا وحرفًا؛ فإذا كانت اسمًا؛ كانت ظرف مكان، وإذا كانت حرفًا؛ كانت من حروف المعاني الدّالَّة على المفاجأة، والمُفاجَأةُ عِبارَةٌ عن موافَقةِ الشَّيْءِ في حالٍ أنْتَ فيها[2]، وتدلُّ على حصول مضمون جملتها دفعة بدون تريُّث، وإلى البِدار والإسراع بمضمون الجملة[3]؛ ليكون دخول "(إذا) الفجائية في جواب ﴿فَلَمَّآ﴾ للدلالة على أنهم ابتدروا الهروب من شدّة الإحساس بالبأس تصويرًا لشدة الفزع"[4] من غير توقُّف أصلاً[5]؛ ففاجؤوا مَن حولهم بركضهم[6].

مفاجأةٌ غيرُ مرحَّبٍ بها من الظالمين

سرُّ وُرُود ضمير الفصل ﴿هُم﴾:

مجيء ضمير الفصل في قوله تعالى: ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾

حالة مخصوصة من العذاب والهلع لأُناس مخصوصين

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 17/ 16.
(2) الزركشيّ، البرهان: 4/ 190.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 233، و11/ 133.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 26.
(5) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 395.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4837.

يُفيد التأكيد؛ أيْ: تأكيد الحالة التي يكون عليها هؤلاء القوم أهل القرية حين يُدركون وقوع العذاب بهم يستحثّون أنفسهم على الهرب والفرار، كما أنَّ وُروده هنا يُفيد اختصاصهم بهذه الحالة دون سواهم تصويرًا لحالتهم تلك، وأيضًا للدلالة على أنَّ ما بعده يُعدُّ خبرًا لا صفة؛ فأفاد ورود هذا الضمير هنا بيان هذه الحالة التي يكون عليها أهل هذه القرية حين يعاينون العذاب ووقوعه بهم؛ فلم يَرِدْ حشوًا؛ بل كان هذا سرَّ وُروده.

معنى حرف الجرِّ في: ﴿مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يجوز في (من) أن تكون ابتدائيّةً؛ والمعنى: خارجين من القرية، ويجوز أن تكون تعليليَّة على معنى يهربون من البأس الذي أحسُّوا به بحصول أشراط العقاب من النَّوازل[1].

مرجع ضمير المؤنث في ﴿مِّنْهَا﴾:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ "الضميرُ في ﴿مِّنْهَا﴾ يعودُ على ﴿قَرْيَةٍ﴾، ويجوز أنْ يعودَ على ﴿بَأْسُنَآ﴾؛ لأنه في معنى النِّقْمة والبأساء، فأنَّث الضميرَ حملاً على المعنى"[2].

لفظ الرَّكض بين الحقيقة والمجاز:

الرَّكضُ في قوله ﷻ: ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ "كناية عن الهرب؛ أيْ: فإذا هم يهربون مُسرعين راكضين دوابَّهم، وجُوِّز أن يكون المعنى مُشبِّهين بمَنْ يركض الدَّوابَّ على أن هناك استعارة تبعيَّة، ولا مانع من حمل الكلام على حقيقته على ما قيل"[3]، فوجه الكناية هو عن صفة الهرب والفرار من شدَّة ما يراه هؤلاء، أو كناية عن موصوفين بهذه الصِّفة تصويرًا للحالة التي تلبَّس بها هؤلاء؛ فإنَّ

الـــــزَّلازِلُ والصَّواعِقُ جند من جنود الله تـعـالى الـتـي أعدَّها للظالمين

يحاولون الفرار من قريتهم بعد أن عـاثـوا فيها فـسـادًا، وأنى لهم ذلك؟!

يـــركـــضـــون كـالـدَّوابِّ من هول ما شاهدوه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 17/ 16، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 24.
(2) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المَصون: 8/ 136.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 17/ 16.

الخائف من أمرٍ ما يحاول بكلِّ ما لديه من قوة واستجماع قدرة على الفرار حتى لا يلحقه أذًى أو ضررٌ.

وعلى الاستعارة التبعيَّة في الفعل؛ استُعير حثُّ الدّابَّة وتحريكها لفرار هؤلاء وهروبهم السريع خوفًا من إلحاق الضَّرر بهم، ثمَّ اشتُقَّ من الرَّكض بمعنى الجري السَّريع فرارًا وحذرًا من العذاب على سبيل الاستعارة التّبعيّة، والقرينة حاليّة ملحوظة من سياق الكلام تصويرًا لحالة نفورهم وسرعة هروبهم، أو أنَّ الكلام على حقيقته لتصوير حالتهم حين تدافعهم من المكان الَّذي نزل بهم العذاب فيه.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يَرۡكُضُونَ﴾:

الفعل المضارع دالٌّ في أصل استعماله على تجدُّد الفعل واستمراره مع استحضار الصّورة الماضية، وهنا دلَّ الفعل على تجدُّد الرَّكض منهم واستمراره مع تصوير الحالة التي كانوا عليها ساعة هروبهم.

ضرورة التَّوقف عن الفرار والاتِّعاظ بحال السّابقين

مرجع ضمير الفعل ﴿يَرۡكُضُونَ﴾:

الضَّمير في الفعل ﴿يَرۡكُضُونَ﴾ هنا عائدٌ على أهل هذه القرية الظّالمة؛ لكونهم هم المخصوصين بذلك، ومن هنا ورد مجموعًا لوقوع هذا الفعل منهم جميعًا، لما عاينوا ما حلَّ بهم من النِّقمة والعذاب، أو يُركضون دوابَّهم حثًّا لها على السرعة والجري فرارًا ممّا ألَمَّ بهم.

يفرّون من عذاب الله إلى عذاب الله

سرُّ فصل قوله تعالى: ﴿لَا تَرۡكُضُواْ﴾:

فُصلت هذه الجملة عن سابقتها لشِبه كمال الاتِّصال كأنَّ قائلًا قال: فماذا قيل لهم لمّا فعلوا ذلك؟ فجاء الجواب بنهيهم عن ركض دوابِّهم مع أمرهم برجوعهم إلى حالتهم الأولى التي كانوا عليها على سبيل الاستئناف البيانيِّ، واختُلف في القائل بين أن يكونوا بعض الملائكة، أو هم مَن كان هناك من المؤمنين، وهذا القول على سبيل الاستهزاء بهم[1].

تيئيسٌ للقُرى الظّالمة وتهكُّمٌ بهم

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 564، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 288.

سرُّ التَّعبير بالمضارع المَنهيِّ ﴿تَرۡكُضُواْ﴾، وموقع الجملة:

هـروبُـهـم مثارُ سخريةٍ وتهكُّمٍ

جملة المُفتتح ﴿لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ﴾ مُعۡتَرِضَةٌ بَيۡنَ جُملَةِ ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ﴾ وبيۡنَ جُملَةِ ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، وهي خِطابٌ لِلرّاكِضينَ بتخيل كَونهم الحاضِرين المُشاهِدينَ في وقْتِ حِكايَةِ قِصَّتِهِم، تَرْشيحًا لِما اقْتَضى اجْتِلابَ حَرْفِ المُفاجَأةِ، ويجوزُ جَعْلُ الجُملَةِ مَقولَ قَوْلٍ مَحْذوفٍ خوطِبوا به حينَئِذٍ بأنْ سَمِعوهُ بخَلْقٍ من اللّه تَعالى أوْ مِنْ مَلائِكَةِ العَذابِ، ويُبْعِدُهُ اسْتِبْعادُ أنْ يَكونَ ذلك واقِعًا عِنْدَ كُلِّ عَذابٍ أُصيبَتْ به كُلُّ قَرْيَةٍ، وأيًّا ما كانَ فالكَلامُ تَهكُّمٌ بهِم[1].

سِرُّ العطف في قوله: ﴿وَٱرۡجِعُوٓاْ﴾:

العمل الذي خلا مـن الإخـلاص هباءٌ منثورٌ كأن لم يكن

في قوله: ﴿وَٱرۡجِعُوٓاْ﴾ عُطف فعل الرُّجوع هنا على جملة النَّهي في قوله: ﴿لَا تَرۡكُضُواْ﴾ مُرادًا به التَّهكُّم والاستهزاء بهم، "فإنَّهم كانوا أسخياء حقيقة يجودون بالنَّوال ويبسطون أيديهم بالعطايا؛ ولكنهم كانوا يفعلون ذلك رئاء الناس واكتسابًا للشُّهرة والثَّناء، وفي ذلك من الإيلام والايجاع ما فيه، إذ يرون أنَّ ما أنفقوه وما بذلوه لم يكن إلّا زيادةً في برحائهم وإمعانًا في عذابهم أنَّهم كانوا بخلاء يكرهون البذل ويصدُّون عمَّنْ جاء يستندي سحابَ أكُفِّهم ويمتري إخلاف جدواهم؛ فقيل لهم ذلك ليزيدهم إيلامًا على إيلام وإيجاعًا على إيجاعٍ"[2].

إيثارُ التعبير بفعل الرُّجوع أمرًا: ﴿وَٱرۡجِعُوٓاْ﴾:

التَّذكير بحالتهم القديمة ليُدركوا أنَّـهـا سـبـبُ شقاوتِهم

"الرُّجوعُ: العود إلى ما كان منه البدء، أو تقدير البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعه، أو بجزءٍ من أجزائه، أو بفعلٍ من أفعاله؛ فالرُّجوعُ: العود"[3]، وورود الفعل ﴿وَٱرۡجِعُوٓاْ﴾ على جهة الأمر بعد أن نهاهم عن عدم ركضهم وهَرَبِهم عاد فأمرهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 25.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 288، 289.
(3) الراغب، المفردات: (رجع).

بالرُّجوع إلى الحالة التي كانوا عليها؛ فناداهم بلسان الحال تقريعًا وتبشيعًا لحالهم وتفظيعًا: لا تركضوا وصور التَّهكُّم بهم بأعظم صورة فقال: "وارجعوا إلى قريتكم".

ولا شكَّ أنَّ ورود الأمر بالرُّجوع إلى الحالة الأولى من التَّرف والنَّعيم الذي كانوا فيه وهو ما كان مدعاةً لظلمهم وارتكابهم المحرَّمات فيه مزيد تهكم واستهزاء بهم، وفيه من التَّقريع والتَّسفيه ما فيه، فلم يكن رجوعهم من ذوات أنفسهم؛ بل ورد لهم من الأعلى عنهم ليكون تسجيلًا عليهم بالمَذلَّة والإهانة لا إعتابًا لهم؛ بل كان إعناتًا وتحقيرًا لشأنهم.

عودُ الضمير في فعل الأمر ﴿وَٱرۡجِعُواْ﴾:

قـوم آخـرون ديـدنـهـم هو الـتَّـصـديـق والإذعـــان وعـدم التَّكذيب جـــديـــرون بالنَّعيم

ورد الضمير هنا عائدًا على أهل القرية الظّالمة في كونهم هم المخصوصين بذلك، وأنَّ مناط الأمر مُتعلِّق بهم لا بغيرهم، بدليل تنبيههم بأنَّ الله تعالى مستبدلٌ بهم غيرهم ممَّن ليسوا على شاكلتهم، وأنَّ ديدن هؤلاء الآخرين هو التَّصديق والإذعان وعدم التكذيب، والمراد من خطابهم هذا تذكيرهم بما كانوا فيه من التَّنعُّم والتَّرف وبَطَر النِّعمة.

مفهوم ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالته هنا:

رجـوعـهـم إلى الـحـالـة الأولى تهكُّمٌ بهم

حرف الجرّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡجِعُواْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ﴾ دالٌّ على انتهاء الغاية، والغاية هنا هي دنيا الترف والنعيم ومساكنهم التي أُمروا بالرُّجوع إليها، وهي حرف مقابل (من) الدّالِّ على ابتداء الغاية، قال الزركشيُّ: "ثُمَّ لا يَخْلوا أنْ يَقْتَرِنَ بها قَرينَةٌ تَدُلُّ على أنَّ ما بَعْدَها داخِلٌ فيما قَبْلَها أوْ غَيْرُ داخِلٍ وإنْ لَم يقترن بها قرينة تدلُّ على أنَّ ما بَعْدَها داخِلٌ فيما قَبْلَها أوْ غَيْرُ داخِلٍ فيُصارُ إلَيْه قَطْعًا وإنْ لَم يَقْتَرِنْ بها"[1]، وحاصل كلامه - رحمه الله - أنَّ

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 232.

الأمر برجوعهم إلى التَّرف والتَّلذذ والتَّنعم الذي كانوا فيه وحلولهم مساكنهم التي عاشوا فيها داخل في هذا الأمر؛ وهو الرُّجوع إلى هذه الحالة الأولى، وورد ذلك تهكُّمًا واستهزاءً بهم وبما صاروا إليه.

دلالة ورود ﴿مَآ﴾ في الجملة:

لا قيمة لأيِّ شيء إذا كان في غير طاعة الله تعالى

وردت ﴿مَآ﴾ هنا اسمًا موصولًا بمعنى: (الذي)، وهي إمّا مُعرَّفة أو نكِرة، فإن حسُن موضعها (الذي) فهي معرفة، وإن حسُن (شيء) فهي نكرة، وإن حَسُنا معًا جاز الأمران، والأسماء الخبرية الموصولة يستوي فيها التذكير والتأنيث، والإفراد والتَّثنية والجمع، فإن كان المُراد بها المُذكَّر؛ كانت للتَّذكير بمعنى (الذي)، وإن كان المُراد بها المؤنَّث كانت للتأنيث بمعنى (التي)، وهي اسمٌ مُبهم غاية الإبهام، ولفظها مُفردٌ، ومعناها الجمع، ويجوز مراعاتها في الضَّمير، وأصلها أن تكون لغير العاقل، وللعاقل على سبيل التَّغليب[1]، ووردت هي وحرف الجر (إلى) مُتعلّقيْن بفعل الأمر ﴿وَٱرۡجِعُواْ﴾.

إيثار التعبير بالفعل ﴿أُتۡرِفۡتُمۡ﴾ مبنيًّا للمفعول:

الظالمون قابلوا عطاء الله تعالى بالجحود والنُّكران

قال البقاعي: "ولما كان التَّأسيف على العيش الرّافِه لا على كونه من مُعطٍ مُعيَّن؛ بُني للمفعول قوله: ﴿أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ﴾؛ أي: منها، ويجوز أن يكون بُني للمجهول إشارةً إلى غفلتهم عن العلم لَمَنْ أترفهم، أو إلى أنَّهم كانوا ينسبون نعمتهم إلى قواهم، ولو عدُّوها من الله لشكروه فنفعهم، ولمّا كان أعظم ما يُؤسف عليه بعد العيش الناعم المسكنُ، قال: ﴿وَمَسَٰكِنِكُمۡ﴾"[2]، وجملة ﴿أُتۡرِفۡتُمۡ﴾ صلة الموصول مُبيِّنة للحالة التي كان عليها هؤلاء من النعيم.

والإترافُ انتظار النعمة؛ وهو من الرَّفَه؛ أي: النَّعيم ورفاهية العيش، والمعنى: ارجعوا إلى ما أُعطيتم من رفاهية العيش والنعيم

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 398، 399.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 394.

الذي تركتموه وإلى مساكنكم التي كنتم تُعمِّرونها، ولمّا كان هذا النَّعيم والتَّرف من الله تعالى ولم يُقابل بالشُّكر والاعتراف منهم؛ جاء هذا الفعل مبنيًّا للمفعول، فليس من جهدهم ولا من عنديّات أنفسهم؛ بل كان عطاءً من الله تعالى قُوبل بالنُّكران.

معنى ﴿فِيهِ﴾ ومَرَدُّ الضمير فيه:

تقلُّب الظالمين في النَّعيم ليس دليلًا على رضى الله عليهم

(في) حرف جرٍّ يفيد الظَّرفيَّة، وهو في قوله تعالى: ﴿أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ مُستعار لتمكُّنهم في النَّعيم والتَّرف؛ فالاستعارة من قبيل الاستعارة التَّبعية في الحروف؛ إذ استُعيرت (في) من معناها الحقيقيِّ للدلالة على الاستقرار في النَّعيم والتَّمكُّن منه وللمساكن التي كانوا يُقيمون فيها مع تمكُّنهم فيها تمكُّن الظَّرف من المظروف، ويجوز أن تكون للسَّببيَّة؛ والمعنى؛ أيْ: بسبب ما أصابكم من النَّعيم والإترافِ الذي صرفكم عن الاعتراف بنعم الله تعالى فكان ذلك صارفًا لكم عن شكر هذه النعم والعطايا، ومرجع الضمير في ﴿فِيهِ﴾ إلى ما نُعِّمتُم فيه من العيش الهنيء والمساكن المأهولة التي اغتررتم بها وظننتم بقاءكم فيها وعدم تركِكم لها.

سِرُّ العطف في ﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ على ما سبق:

مساكن الظُّلم والجَوْر الفاخرة دكَّها الله تعالى فوق ساكنيها

عُطفت جملة ﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ على قوله سبحانه: ﴿مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾؛ فالله تعالى مَنَّ عليهم بالتَّرف والنَّعيم مع عدم أداء حق هذا النَّعيم من الشكر، ثمَّ مَنَّ عليهم مِنَّة أخرى وهي المساكن الفاخرة؛ فبدل أن تكون عامرة بالإيمان والعمل الصالح؛ عمدوا إلى مساكن لا إيمان فيها فبدَّلوا نعمة الله كفرًا وأحلوا مساكنهم دار البوار، "ولمّا كان أعظم ما يُؤسف عليه بعد العيش النّاعم المَسْكن، قال: ﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾؛ أي: التي كنتم تفتخرون بها على الضعفاء من عبادي بما أتقنتم من بنائها، وأوسعتم من فنائها، وعلَّيْتُم من مقاعدها، وحسَّنتم من مشاهدها"[1].

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 394.

مفهوم الحرف (لَعلَّ) هنا:

تهكُّمٌ واستهزاءٌ بالجاحدين المُنكرين

(لَعلَّ) في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ للتَّرجي؛ لكنَّه خرج عن معناه الحقيقيِّ إلى معنى الاستهزاء بهم والتَّهكُّم بما كانوا يظنُّونه ويعتقدونه بأنفسهم من أنَّهم أهلٌ للسَّخاء والكرم والعطاء؛ والمعنى عليه: ارجعوا إلى النَّعيم الذي كنتم فيه والمساكن التي كنتم تقطنونها لعلَّكم تُسألون شيئًا من دنياكم التي كنتم عليها كما تُصوِّر لكم أنفسكم أنَّكم أهل الفضل والعطاء.

دلالة التعبير بـ﴿تُسْـَٔلُونَ﴾ مبنيًّا للمفعول:

اجتماع العذاب المُقيم والتَّهكُّم والحسرة على الظَّالمين

قوله عزَّ من قائلٍ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ من جملة التَّهكُّم بهم والتَّوبيخ والاستهزاء من شأنهم، ولمّا كان السّائلون لهم كثيرين؛ جاء التعبير بفعل السُّؤال مبنيًّا للمفعول لعدم تحديد السائل، فهو إمّا سؤال لهم عند عودتهم إلى نعيمهم ومساكنهم عمّا جرى عليهم وأصابهم، فيُجيبوا السّائل عن علم ومشاهدة، وإمّا سؤالٌ من عبيدهم وحَشَمهم وخُدّامهم في مجالسهم، وإمّا سؤالٌ للنّاس في أنديتكم لتعاونوهم في نوازل الخطوب ويستشيرونكم في المُهمّات، وإمّا سؤالٌ للوافدين عليكم والطّامعين فيكم[1]، فلمّا كان السّائل غير معلوم، أو ليس هناك داعٍ لذِكْره إمّا لتعدُّده أو شهرته؛ ورد فعل السؤال هنا مبنيًّا للمفعول.

تقدير متعلِّق السؤال في الآية:

سرعة المبادرة إلى المطلوب والإقرار بالذنوب

للفعل تعلُّقٌ بالفاعل إذا كان واقعًا منه، وبالمفعول إذا كان واقعًا عليه، وكلٌّ من الفاعل والمفعول معمولٌ لهذا العامل، وقد يكون غرض المُتكلِّم بيان وقوع الحدث حسبُ دون النَّظر إلى الفاعل أو المفعول، وفي جملة السؤال حذف متعلِّقه؛ لأنَّ المقصود وقوع السؤال، فحذف المتعلِّق هنا؛ أيْ: تُسألون شيئًا من دنياكم فتُعطون مَن شئتم وتمنعون

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/ 564 - 565، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 124.

مَن شئتم بحسب تصوُّركم أنفسكم من أنَّكم أهل العطاء والسَّخاء حين يسألكم الناس في النَّوازل والمُلمّات[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القَصْم والفَضْم والكَسْر والقَطْع والصَّرْم:

لمّا كان ظلم أهل القرى إتيانهم بأعظم الذَّنب وهو الإشراك؛ ناسب لفظ القَصْم

القَصْم أن ينكسر الشَّيْء فيبينَ، وهو كسرٌ من الطول، والفَضْمُ أن ينصدع من غير أن يَبينَ، فهو تصدّع من غير كسر، والكَسْر: تهشيمٌ للشيء، والقَطْع: فصل الشيء وإبانته من شيء آخر، والصَّرْم: القَطْع[2]، وقد مرَّ في شرح المُفردات أنَّ القَصْمَ كسرٌ للشَّيْء الشَّديد حتَّى يبين، ولا يُرجى بعده التئام، ولا انتفاع لِما فيه من تحطيم وإذهاب وإهلاك، ولمّا كان ظلم أهل القرى هو إتيانهم بأعظم الذَّنب وهو الإشراك؛ ناسب لفظ القَصْم الدّالّ على الإهلاك القويّ والاستئصال، وهو ما لا تُعبّر عنه الألفاظ الأخرى بالدِّقَّة نفسها.

الإحساس والإدراك والشعور:

مباشرة ظهور الكفر والعذاب وعلمهما بالحواس أشدُّ وقعًا على النفس، وأرعب

حقيقة الحسّ إدراك بالحاسَّة، أمّا الإدراك فهو لحوق الشيء بالشيء ووصوله إليه، وأمّا الشُّعور فهو أول مَراتِب وُصول العِلْم إلى النَّفس، والفرق بين الاحساس والإدراك والشعور أنه يجوز أن يُدرك الإنسان الشيء وإن لم يُحسّ به، كالشيء يُدركه ببصره ويغفل عنه؛ فلا يعرفه؛ فيُقال إنه لم يُحسّ به، وكل ما شعرت به فقد أحسسته؛ لكن الشعور علم يوصل إليه من وجهٍ دقيقٍ كدقَّة الشَّعر؛ ولذلك هو ابتداء العلم بالشيء من جهة المشاعر[3].

(1) الخازن، لباب التأويل: 3/ 222.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قصم)، و(قطع)، و(صرم)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 431، والزبيدي، تاج العروس: (قصم).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (درك)، و(شعر)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 23، والكفوي، الكلّيّات، ص: 66.

ولفظ البأس بمعنى شدّة العذاب لا يناسبه لفظا الإدراك بمعنى اللُّحوق، والشُّعورُ الدّالُّ على ابتداء العلم بالشيء وعلى الوجه الدقيق، وإنَّما اللَّفظ المناسب له، والمُنسجم معه في سياق ورودهما: (الإحساس)؛ ذلك أنَّ الكفر قد ظهر منهم ظهورًا بانَ للحِسّ فضلًا عن الفهم؛ فباشروه بالحواسِّ وعلِموه وشاهدوه، وعلموا شدة عذابنا علم حسٍّ ومشاهدة.

البأس والشّدة والعذاب والعقاب:

البأس هو الشدّة في كلّ شيء في الحرب، وفي العيش، وهو المكروه، والمَشَقَّة[1]؛ أمّا العذاب فهو الألم المُستمرُّ، وأمّا الشِّدَّة فهي المبالغة في وصف الشيء في صلابة وليس هو من قبيل القدرة[2]، ولمّا كان المناسب لسياق الآية اللفظة الدّالَّة على شدَّة العذاب المناسب لكفرهم والمُؤدّية إلى إذهابهم، وهو عذاب ليس مُستمرًّا وإنَّما انقطع بإهلاكهم؛ ناسَبَ ذلك اصطفاء لفظ البأس.

الإشـراك بالله أشـد الـظُّـلـم، وجـــزاؤه قـصـمٌ بأشدّ العذاب

الرَّكض والفرار:

الرَّكض الضَّرب بالرِّجْل بسرعة، وأمّا الفرار فهو ركضٌ بخِفَّةٍ وطيْشٍ، ومَنْ يفرّ بطيشٍ من شدَّة الخوف لا يدرك ما حوله، بخلاف الرّاكض فإنّه يدرك ما حوله فيرى العذاب النازل به، والبأس الذي عُوقب به فيكون أشدَّ للرُّعب، وأدعى للحسرة على نعيمهم الزائل.

الـرّاكـض يـدرك الـعـذاب الواقع عليه وما حوله فـيـتـحـسّـر، ويـتـألَّـم على نعيمه الزائل

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بأس)، والراغب، المفردات: (بؤس).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 297، 354.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»